مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 10/ العـــدد: 3 (2022)، ص: 718-733

الفكر الخلدوني بين التوظيف الأيديولوجي و التوظيف العلمي

Khaldunian thought between ideological employment and scientific employment

قدور رشيد[1]

[1]جامعة محمد خيضر- بسكرة(الجزائر)

Rachid.kaddour@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/10 تاريخ القبول: 2022/08/31 تاريخ النشر: 2022/10/08

الملخص:

ليس الهدف من هذه الدراسة هو توضيح إنجازات "ابن خلدون" في ميادين العلوم المختلفة، لأن هذا الأمر معروف لدى الباحثين و الطلبة و المثقفين، و انما الهدف هو تسليط الضوء على كيفية التعامل مع هذه النزعة الخلدونية من طرف المفكرين سواء كانوا غربيين أو عرب مسلمين، و غني عن التعريف أن المفكرين الغربيين قد عرفوا الفكر الخلدوني في بداية القرن 19م بعدما تم ترجمة مقدمته الى لغات عالمية متعددة، لكن المفكرين العرب لم يتعرفوا على إنجازات ابن جلدتهم العلمية الى غاية القرن 20م، فكان أولى لنا أن نتعرف عليه قبلهم و نستوعب ابداعاته و ندرسها في جامعاتنا، و نطبق أفكاره في دراسة مجتمعاتنا الحالية، و نسوقه للأخرين بالطريقة التي تليق بنا، لكن الواقع يثبت أن الفكر الخلدوني قد وظف توظيفا علميا أحيانا و أحيانا أخرى قد وظف توظيف أيديولوجيا يخدم أغراضا عنصرية و استعمارية.

الكلمات المفتاحية: الفكر الخلدوني، الفكر الخلدوني و العلم، الفكر الخلدوني والايديولوجيا، النزعة الخلدونية.

Abstract: The aim of this study is not to clarify the achievements of "Ibn Khaldun" in the various fields of science, because this matter is known to researchers, students and

intellectuals, but the aim is to shed light on how to deal with this Khaldunian tendency on the part of thinkers, whether they are Western or Arab Muslims, and it goes without saying that Western thinkers knew Khaldunian thought at the beginning of the 19th century after its introduction was translated into multiple international languages, but Arab thinkers did not recognize the scientific achievements of their son-in-law until the 20th century AD, so it was better for us to get to know him before them and We absorb his creativity and study it in our universities, and apply his ideas in the study of our current societies, and market it to others in the way that befits us, but the reality proves that Khaldunian thought has been employed scientifically sometimes and at other times it has employed an ideology that serves racist and colonial purposes.

Keywords: Khaldunian thought, Khaldunian thought and science, Khaldunian thought and ideology, Khaldunian tendency.

المؤلف المرسل: رشيد قدور

1-المقدمة:

لم يمض على معرفتنا للعلامة ابن خلدون سوى خمسة عقود بالرغم أن الأوروبيين قد عرفوا مؤلفاته منذ أكثر من قرنيين، فأبحاثه في مجال علم الاجتماع و التاريخ و التعليم و السياسة والاقتصاد و غيرها من ميادين المعرفة العلمية كانت قد أكتشفت من طرف الأوروبيين و محل اهتمام من طرفهم رغم أنه مفكر عربي فالأولى بنا أن نكتشفه قبلهم و نسوقه للأخرين بالطريقة التي تليق بنا، فاكتشافه لعلم التاريخ و المنهج الذي وضعه له و القوانين التي تتحكم في التاريخ، و لعلم الاجتماع الذي سماه علم العمران البشري و منهجية البحث فيه، و غيرها من الميادين التي اكتشفها و بحث فيها كانت محل اهتمام و استفادة من طرف الباحثين الغربيين قبل العرب المسلمين أبناء جلدته، غير أن الفكر الخلدوني لم

يوظف في مجاله العلمي فقط، لذلك يحق لنا أن نتساءل: كيف وظف الفكر الخلدوني؟ هل وظف توظيفا علميا أم توظيفا ايديولوجيا؟

ان الإجابة عن المشكلة المطروحة تستدعي تقديم اطلالة خفيفة، عن إنجازاته ابن خلدون في ميدان علم الاجتماع وعلم التاريخ. لأن هذا المقال لا يسعنا الى الافاضة في حياته والظروف العامة التي عاصرها.

2-ابن خلدون و علم العمران البشري:

1.2 -ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع: هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون بن أبي بكر محمد بن خلدون الخضر مي، ولد في تونس سنة 1332م و توفي بالقاهرة سنة 1406م(732- 806 ه) و ينتهي نسبه إلى "وائل بن حجر" و هو أحد كبار الصحابة، تولى تعليم القرآن ونشر الإسلام في اليمن، و قد ذكر ابن خلدون في ترجمة حياته، في كتاب "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا و غربا" أن أحد أجداده المسمى "خالد بن عثمان" رحل إلى الأندلس مع جند من اليمن في أوائل القرن الثالث للهجرة، و أن اسمه تحول هناك إلى "خلدون" على عادة أهل المغرب، و هو يرى أن المؤرخ الأندلسي "ابن حيان" ذكر أن بني خلدون كانوا في اشبيلية(الأندلس) و أن أعلامهم لم يزالوا يتقبلون بين رياسة سلطانية و رياسة علمية، فبعض أجداده اشترك في حكم اشبيلية، وبعضهم تولى الوزارة و القيادة في تونس، وبعضهم اختار العلم على السيف و الخدمة.(ابن خلدون، 1979ص ص5-8) و من أهم مؤلفاته كتابه المشهور "العبر في المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم و الأمازيغ و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الذي يحتوي في قسمه الأول "المقدمة" التي كتبها في قلعة ابن سلامة(مدينة فرندة، ولاية تيارت حاليا) بينما القسم الثاني كتبه في القاهرة. و قد بقي هذا المؤلف مجهولا عند الأوروبيين إلى غاية القرن 19م، بعد أن طبعت سنة 1857 بمصر، و باريس سنة 1858م على يد المستشرق(كاترمير)، ثم ترجمت إلى اللغة الأوروبية، أولها الترجمة

الفرنسية و هي ترجمة دوسلان سنة 1862م، ثم إلى البرتغالية سنة 1958م ثم الانجليزية سنة 1958 ثم توالت الترجمات الأخرى.

يشير "ابن خلدون في مقدمته" إلى أنه اكتشف علما جديدا هو "علم العمران البشري" الذي عرف بعده بخمسة قرون بعلم الاجتماع أو السوسيولوجيا، حيث كان المؤسس الأول له، بالرغم ذلك لا يزال الاعتقاد السائد عند البعض أن علم الاجتماع علم حديث و ينسبونه إلى "أوجست كونت" ولكن الباحث في تاريخ العلم يدرك أن "ابن خلدون " ساهم في تأسيس هذا العلم والتنظير له، وتحديد موضوعه ومنهجه، و الغاية منه، قبل علماء الغرب و إن كان قد سبقه الإغريق في تناول موضوعات المجتمع مثل أفلاطون و أرسطو، إلا أن إسهاماتهم كانت مثالية، ولم تكن واقعية، على خلاف ابن خلدون، الذي كانت دراسته قائمة على استقراء الواقع بالمشاهدة و التجربة، و موضوع علم العمران البشري هو البحث في طبيعة العمران و ما يعرض له من تحول في طبيعته، أو في عوارضه، و هو علم مستقل عن سائر العلوم والفنون، و هو يقول " هذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا و كأن هذا علم مستقل بنفسه، فانه ذو موضوع و هو العمران البشري و الاجتماع الإنساني و ذو مسائل و هي بيان ما يلحقه من العوارض و الأحوال لذاته واحدة بعد الأخرى و هذا شأن كل علم من العلوم كان وضعيا أو عقليا. و أعلم بأن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة عزيز الفائدة."(ابن خلدون،1981، ص 42) لأن قيام أي علم يستدعي شرطان: الأول أن يكون له موضوعا مستقلا عن موضوعات العلوم الأخرى، والشرط الثاني، أن يكون للظواهر التي يبحثها علل و أسباب تفسرها، والظواهر التي يتناولها علم العمران البشري خاضعة لقوانين ثابتة، فهو يرى آن الظواهر الاجتماعية تسير وفق قوانين ثابتة و تخضع لمبدأ الحتمية، لأننا كثيرا ما نجده يستخدم لفظ طبائع العمران مثل قوله" للعمران طبائع في أحواله"(ابن خلدون،

1981، ص 36) للدلالة على أن للاجتماع الإنساني قوانين طبيعية تحكمه، وإشارته في عدة مواضيع في المقدمة إلى طبيعة الملك، طبيعة العصبية، و طبائع الأكوان، و هذا يدل على أن المقصود بطبيعة العمران هو تعليل جميع أحواله بأسباب طبيعية و قوانين ثابتة بخضوعها لمبدأ الحتمية، و هو الغرض من هذا العلم ، فالمجتمع الإنساني يسير و فق قوانين طبيعية من طور إلى طور، من طور البداوة إلى الحضارة، و الملك غاية العصبية، و هو يقول "كلامنا في وظائف الملك والسلطان و رتبته إنما هو بمقتضى طبيعة العمران، و وجود البشر."(ابن خلدون، 1981، ص236) و العمران البشري نوعان: عمران بدوي و عمران حضري، ولكل أحوال تخصه، و هو يتناول كما يقول" يبحث في طبيعة العمران في الخليقة، و ما يعرض فيها من البدو و الحضر و التغلب (تغلبات البشر بعضهم على بعض) و الكسب والمعاش و الصنائع و العلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب"(ابن خلدون،1981، ص35) وبذلك يكون "ابن خلدون" قد أدرك أن للظاهرة الاجتماعية خصائص قبل "اميل دوركايم" بقرون، وهي أنها تنشأ عن طبيعة الاجتماع الإنساني(أي جماعية) و أنها تسير وفق مبدأ الحتمية أو طبيعية(أي تتصف بالإلزام والقهر، وتخرج عن شعور الأفراد) و إذا كان "اميل دوركايم" قد قسم علم الاجتماع إلى ثلاثة فروع رئيسية و هي : "المورفولوجيا الاجتماعية" أو "علم البيئة الاجتماعية" و هو يدرس تركيب المجتمع من السكان وأنواع تجمعهم و أثر البيئة الجغرافية في حياتهم، و الفيزيولوجيا الاجتماعية ، وتتفرع إلى عدة علوم مثل علم الاجتماع الاقتصادي، و علم الاجتماع السياسي والأخلاقي و التربوي، و علم الاجتماع العام، يدرس الطابع العام للوقائع الاجتماعية، يهدف إلى معرفة القوانين العامة التي تتحكم فيها. هذه الأقسام الثلاثة "ابن خلدون" تفطن إليها، ففي الكتاب الأول من المقدمة يتناول "طبيعة العمران في الخليقة و ما يعرض فيها من البدو و الحضر والتغلب و الكسب

والصنائع و العلوم و نموها، وما لذلك من العلل و الأسباب، وهنا قد اهتم ابن خلدون بدراسة أثر البيئة الجغرافية في هذه الظواهر، وهذا ما أسماه دوركايم بعلم البيئة الاجتماعية.(بيومي،2003، ص143)و يذكر "ابن خلدون " في مقدمته 6 أبواب، نذكر منها: الباب الأول" في العمران البشري على الجملة وأصنافه و قسطه من الأرض" و هذا ما يسمى حديثا بعلم الاجتماع العام، الباب الثاني "في العمران البدوي و ذكر القبائل و الأمم الوحشية" و يتناول فيه ما يطلق عليه حديثا "علم الاجتماع البدوي" و الباب الثالث" في الدول و الخلافة و الملك وذكر المراتب السلطانية" و يتناول فيه تأثير الظروف الاقتصادية و سبل كسب العيش و أحوال المجتمع، و هذا ما يقابل حديثا علم الاجتماع الاقتصادي، والباب الرابع" في العمران الحضري و البلدان و الأمصار" و يتناول فيه جميع الظواهر المتعلقة بالحضر، ويقابله حديثا علم الاجتماع الحضري، و في الباب السادس "في العلوم واكتسابها وتعلمها" درس فيه ابن خلدون طرق التعلم وتصنيف العلوم، وما يعرف حديثا بعلم الاجتماع التربوي. كما درس علم الاجتماع القانوني رابطا بين السياسة و الأخلاق. يتناول "ابن خلدون" بالبحث التربوي. كما درس علم الاجتماع القانوني رابطا بين السياسة و الأخلاق. يتناول "ابن خلدون" بالبحث والدراسة و التحليل نقطتين ضروريتين هما: نشأة العمران البشري و العوامل المؤثرة فيه.

2.2 -نشأة العمران البشري: يرى "ابن خلدون" أن الإنسان كائن اجتماعي ومدني بالطبع لا يستطيع أن يعيش بمفرده، وهو يقول" إن الاجتماع الإنساني ضروري وعبر عن هذا الحكماء بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم."(ابن خلدون،1981، ص46) و يبرر ذلك، أولا: بضرورة التعاون مع أبناء جنسه على تحصيل حاجته من الغذاء، فهو عاجز بمفرده عن تحقيق جميع حاجياته بنفسه، فالنجار بحاجة إلى حداد و فلاح

وطبيب و معلم، و المعلم بحاجة إلى هؤلاء، وبهذا يحصل التكامل الاجتماعي و يحقق كل فرد حاجياته. حيث يقول "إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية لها بمادة حياته(....) فلابد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له، و لهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية."(ابن خلدون، 1981، ص 46) و الدافع الثاني للاجتماع الإنساني، هو ضرورة الدفاع ضد الحيوانات المفترسة، فالفرد لوحده عاجز عن مقاومتها، و لا تكفي أيضا الآلات المعدة ما لم يتم ذلك كله بالتعاون مع أبناء جنسه، و هو يقول " و كذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه(....) فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم، سيما المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، و لا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات المعدة لها، فلابد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه."(ابن خلدون، 1981، ص ص46-47) فبالتعاون يتحصل الإنسان على القوت للغذاء، و هو السلاح للدفاع عن نفسه، بتوفر الشرطان يستمر النوع الإنساني، و يتم أعمار الأرض، فحاجة الأفراد إلى التعاون هي التي تدفعهم إلى التساكن، وإذا تفرقوا فيما بينهم لم يكن هنالك عمران بدوي و لا حضري.

غير أن "ابن خلدون" يرى أن الإنسان بطبعه يميل إلى الظلم والعدوان، وحصول الاجتماع للبشر لا يستمر في الوجود ما لم يكن هناك **وازع** يدفع بعضهم عن البعض، فالطبيعة الحيوانية للأفراد تدفعهم إلى التنازع المفضي إلى المقاتلة وسفك الدماء و إذهاب النفوس و بالتالي انقطاع النوع الإنساني، لذلك من المستحيل بقاؤهم في فوضى دون وازع أو حاكم يزع الناس بعضهم بعضا، و هو يقول " ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه، وتم عمران العالم بهم، فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم(....) فيكون ذلك الوازع واحد منهم يكون له عليهم الغلبة و السلطان و اليد

القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان هذا هو الملك."(ابن خلدون، 1981، ص47-48) و الوازع هو الذي يبني عليه ابن خلدون نظريته في الدولة، فالوازع ضروري للعمران البشري لأن الحياة الاجتماعية لا تستقيم بدونه، فتنظيم الناس والقضاء على الصراعات و تحقيق العدل والمساواة بينهم يستدعي الوازع(ابن خلدون، 1981، ص48)

3.2 -العمران البشري في تطور دائم: يرى "ابن خلدون" أن المجتمع كائن تاريخي، فهو في تطور دائم، لا يبقى على حالة واحدة، و إنما هو اختلاف في الأزمنة وانتقال من حال إلى حال: و ينطبق ذلك على الأشخاص و الأوقات و الأقطار والدول، و سبب ذلك "أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه و أهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة و الأمر فلابد أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم، فيأخذون الكثير منها، و لا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول، فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم و مزجت من عوائدهم و عوائدها خالفت أيضا بعض الشيء."(ابن خلدون، 1981، ص32) ويشير ابن خلدون إلى وجود تطور في عالم الطبيعة من المعادن إلى النبات إلى الحيوان .(ابن خلدون، 1981، ص 95) و هو بهذا يسبق أصحاب نظرية التطور وعلى رأسهم البريطاني داروين (1809-1882) في القول بأن للكائنات الحية أصل و احد مشترك، أي علم الجماد تطور إلى عالم النبات ثم عالم الحيوان و أرقى الحيوانات قرد الشمبانزي تطور إلى إنسان.

4.2 -منهج ابن خلدون في دراسة العمران البشري: يرى ابن خلدون أن العلم هو جمع المادة العلمية و البحث عن أسبابها و عللها لتفسيرها ثم الوصول إلى القوانين العلمية التي تتحكم فيها، و قد صرح بأنه استوعب أخبار الخليقة استيعابا كاملا، لأنه فسر الظواهر الاجتماعية و حوادث الدول بعللها، وهو يتبع في ذلك المنهج العلمي الذي يقوم على الخطوات التالية:-ملاحظة الظواهر الاجتماعية في الشعوب

التي احتك بها وخاصة البدو و الحضر من المغرب العربي.-تتبع الظواهر في تاريخ الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره.-تتبع أشباهها و نظرائها في تاريخ شعوب أخرى لم تتح له الفرصة للاحتكاك بها.-مقارنة و موازنة هذه الظواهر مع بعضها البعض، و قياس الماضي بالحاضر، لمعرفة طبائعها و عللها و ما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد و الجماعات.-استنتاج القوانين التي تسير بموجبها هذه الظواهر. و ما نستنتجه أن منهجه العلمي يقوم ثلاث ركائز أساسية: أ-ملاحظات حسية: مشاهدته و احتكاكه المباشر للعمران البشري أو الشعوب التي عاشرها .ب-التأصيل التاريخي: أي الرجوع إلى التاريخ. ج-الاستنتاج العقلي: عمليات عقلية يجريها على هذه المواد ليستنتج القوانين التي تتحكم في الظواهر.(صليبا، 1989، ص602)

5.2 -دوافع تأسيس علم العمران البشري: منها حرصه الشديد على تخليص البحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة، لأنه رأي في كتب المؤرخين الذين سبقوه كالمسعودي، خاصة ما رواه في كتاب "مروج الذهب و معادن الجوهر" الكثير من الأخبار ليست صحيحة، ولعلاج هذه الأخطاء كان من الضروري البحث عن أسبابها، و من هذه الأسباب: الجهل بطبائع العمران و أحوال المجتمعات، الثقة بالناقلين والرواة، التشيع للآراء والمذاهب، وعليه يكون لعلم العمران وظائف منها: تخليص علم التاريخ من الثغرات المنهجية الناجمة عن الجهل و من عدم استيعاب المؤرخين لطبيعة الخبر التاريخي، و كأن علم العمران هو"علم العلم"(عبد الناصر و فكرون، 2012، ص 215)

3-ابن خلدون و علم التاريخ: يرى ابن خلدون أن التاريخ "خبر عن الاجتماع الانساني الدي هو عمران العالم و ما يعرض لطبيعة ذلك العمران من التوحش والتأنس و العصبيات و أصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك و الدول و مراتبها و ما ينتحله البشر بأعمالهم و مساعيهم من

الكسب و المعاش و الصنائع و سائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"(ابن خلدون، ص 38،39، 1981) و قد اكتسف ابن خلدون سبب وقوع المؤرخين الذين سبقوه كالمسعودي في كتابه" مروج الذهب و معادن الجوهر" منها التشيع للأراء و المذاهب، الجهل بطبائع العمران أي أحوال المجتمعات، والثقة بالناقبين والرواة، و أحسن طريقة لتجنب هذه الأخطاء هي استخدام التمحيص والنقد و التي تسمى بطريقة "التجريح و التعديل" التي ابتدعها رواة السنة النبوية(حسين، 1925، ص 37) و وضع قوانين للبحث التاريخي، منها: قانون الاستحالة و الإمكان، أي ما كان من الأخبار ممكنا أدخلناه دائرة الإمكان و ما كان من الأخبار مستحيلا أدخلناه دائرة الاستحالة، و ذلك لتميز الحق عن الباطل، وقانون العلية(ربط السبب بالمسبب) أي الحوادث التاريخية لها أسباب فلا شيء يحدث صدفة، و هو المبدأ الذي يعتمد عليه علماء الطبيعة و فلاسفة ما وراء الطبيعة (حسين، 1925، ص 40)

فهو لا يقر بالمصادفة و يقر بقانون أخر تعويضا لقانون السبب من المصادفة، يتمثل في قانون "التأثير الخارق للعادة" الذي ينسبه ابن خلدون الى الله و الروح، بمعنى ابن خلدون يؤمن بالمعجزات التي هي خرق لقوانين الطبيعة(حسين، 195، ص 41،42) فابن خلدون يحرص على أن يكون السبب الحقيقي للحوادث طبيعيا في جميع الأحوال، و كلما اعترضته خوارق و معجزات لا يمكن انكارها، هي غير بشرية، لا يجوز قياس الأحداث الإنسانية عليها(العروي، 1997، ص 66) و قانون التشابه: الذي في مضمونه أن الحوادث التاريخية متشابهة، و نفس الأسباب تؤدي الى نفس النتائج، و قانون التباين: و يعني أنه ليست كل المجتمعات متماثلة بصفة مطلقة بل توجد فروق بينها يجب أن يلاحظها المؤرخ، و هو قانون تجريبي محض، و ليس له أسباب ترتبط بالدين أو بما وراء الطبيعة، و يرده ابن خلدون الى أسباب سياسية، فإذا اعتمد ابن خلدون

على القوانين الثلاثة يستطيع أن يحكم على الحوادث التاريخية حكما موضوعيا ويميز الحقيقة عن الخطأ(حسين، 1925، 44،45)

4-النزعة الخلدونية في الفكر المعاصر: لما كان عصر ابن خلدون هو عصر الانحطاط فان مصير أفكاره كان التغافل، لأنها انتشرت في بيئة جامدة، مصيرها كمصير حبات القمح التي يبذرها الفلاح في الأرض القاحلة، هذه الأفكار لم ترى النور إلا في القرن التاسع عشر، بعد الطبعات المتتالية لكتاب "العبر" و ترجمته إلى اللغات عالمية، فهذا الكتاب يعتبر أعظم مصدر تاريخي لحياة القبائل العربية والبربرية في القرون الوسطى، فهو موسوعة شاملة تحدث فيها عن العلوم التي اكتشفها، كعلم والتاريخ ومنهجية البحث فيه و الأسباب التي توقع المؤرخون في أخطاء، وعلم الاجتماع أو العمران البشري و طريقة البحث في الظواهر الاجتماعية القائمة المشاهدة والتجربة، والسياسة، عندما يتحدث عن الدول و أنظمتها، والاقتصاد عندما يتحدث عن أحوال المعاش للبدو الحضر، وكل أبحاثه كانت قائمة على الحس والتجربة و تعليل الظواهر بأسبابها، فكلما تحدث عن ظاهرة اجتماعية إلا و بررها بالمشاهدات و الأمثلة الحسية، بمعنى انتهج الطريقة الاستقرائية التجريبية التي تنتقل من الملاحظة الحسية للظواهر إلى القوانين العامة، وهذا الطريقة التجريبية تدل على إيمانه بأن المجتمع الإنساني يسير وفق قوانين طبيعية.

بناء على ما سبق نرى أن طريقة ابن خلدون في البحث تختلف عما سبقه من الفلاسفة، فالفارابي يتبع في مدينته الفاضلة نفس الطريقة التي سار عليها أفلاطون، فيتصور مجتمعا مثاليا لا مجتمعا حقيقيا، و "ابن سينا" يعتقد انه في وسع الفيلسوف أن يصلح المجتمع ويحقق الخير والتقدم بما يشرعه من قوانين عادلة، أما ابن خلدون يبحث في ظواهر المجتمع كما هي عليه في الواقع، ولا وجود لأحكام إنشائية و لا مثل عليا التي يجب تحقيقها في التنظيم الاجتماعي، لذلك هو

فيلسوف وضعي واقعي أو وجودي، يعتقد أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية وإمكانات البشر العقلية، وحياة الدول و مؤسساتها خاضعة للتطور، و أن هذا التطور تتحكم فيه أسباب طبيعية، و كأن للمجتمع الإنساني نظاما طبيعيا يسير عليه، إذن المسائل التي تناولها ابن خلدون تتضمن الكثير من الأصالة، و انه تجاوز عصره، و سبق كثير من العلماء بوضع أسس علم جديد هو علم العمران البشري أو علم الاجتماع ، و بوضع أسس علم التاريخ، والسياسة، والاقتصاد، و في مقدمته كثير من الأفكار التي نجدها فيما بعد عند الايطالي "فيكو" و الفرنسي "مونتسكيو" و "مكيافيلي" و "أوجست كونت" و الألماني"كارل ماركس" و الفرنسي "إميل دوركايم" و الانجليزي "داروين" و غيرهم من المفكرين.(صليبا، 1989،ص ص 560-559) غير أن الفكر الخلدوني عند العلماء والمفكرين *المعاصرين* قد وظف بطريقتين: توظيف علمي، وتوظيف إيديولوجي.

1.5 -التوظيف العلمي للفكر الخلدوني: لقد أدرك بعض المفكرين الغربيين القيمة العلمية لأفكار "ابن خلدون" بأنها سابقة لعصره، و بوؤوه، المنزلة اللائقة به، فهو مفكر مبدع، درس الظواهر الاجتماعية بعقل هادئ رصين، و أمن بمبدأ الحتمية الاجتماعية، و أسس علم التاريخ، موضوعا ومنهجا، و فسر الحوادث التاريخية تفسيرا فلسفيا معقولا، وكلامه على الكسب والمعاش و الصنائع يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد، و وحاول أن يربط التطور الاجتماعي بأسباب طبيعية، و آراءه السياسية و الاجتماعية قد أثرت في كثير من رجال السياسة، لقد سبق زمانه بابتكاره لكثير من النظريات التي لا تزال حتى الآن جديرة بالتقدير، و تأثيره تجاوز حدود عصره، فهو في مصاف العظماء الذين وجهوا العقل البشري توجها جديدا، حيث لقب المستشرق النمساوي "هامر بورشتغال" ابن خلدون بمونتسكيو العرب و هو يقول "قلما وجد بين المؤلفات ما يستحق أن يترجم ترجمة كاملة مثل مقدمة ابن خلدون" و يقول "كولوزيو"" ليس لأحد أن ينكر أن ابن

خلدون كشف عن مناطق مجهولة في عالم الاجتماع(....) و انه سبق مكيافيلي ومونتسكيو و فيكو إلى وضع علم جديد هو النقد التاريخي" و يقول "ناتانيل سميث"" أن ابن خلدون كشف عن ميدان التاريخ الحقيقي و طبيعته، وهو فيلسوف مثل أوجست كونت و توماس بكل، وهربارت سبنسر، وصل في علم الاجتماع إلى حدود لم، يصل إليها كونت نفسه في النصف الأول من القرن التاسع عشر" و يقول"قارد"" كانوا يقولون أن أول من قال بخضوع الحياة الاجتماعية لمبدأ الحتمية هو مونتسكيو أو فيكو، في حين أن "ابن خلدون" و هو من رجال القرن الرابع عشر، كان قد قال بذلك قبلهما بمدة طويلة" و يقول "توينبي" "لا شك أن مقدمة ابن خلدون أعظم عمل خلقه عقل في زمان ومكان"

و ما يميز "ابن خلدون" هو الأصولية الدينية المعتدلة و الحذاقة العلمية الخلاقة، أي كان مفكرا أصوليا معتدلا، و أثبت أن الإبداع المعرفي والعلمي ليس حكرا بأهل العلم المتحررين من سيطرة اللاهوت، بل هو مشاع لكل الفئات سواء كانوا أصوليون أو ملحدون أو جامعوا للعلم والإيمان، هذا ما أشار إليه الباحث الفرنسي المعاصر "كلود هورث" في كتابه الشهير "ابن خلدون: هل يمثل إسلام التنوير؟" حيث يقول" "ابن خلدون" يمكن أن يكون نموذجا يحتذى به بالنسبة للمثقفين اليوم، و يمكن أن يقدم لنا بديلا عن الفكر الأصولي المتطرف"(محمد تقي، 2010، ص 4) و بالنسبة لأبحاث ابن خلدون الاقتصادية بعث الروائي الروسي "مكسيم غوركي" رسالة لرفيقه "أنوتشين" يقول فيها" أن المفكر العربي ابن خلدون تحديدا في القرن14 م يعد أول من اكتشف دور العوامل الاقتصادية و علاقات الإنتاج" و يطرح البروفيسور "كلود هرو" و هو أستاذ محاضر في العلوم السياسية في جامعة مونتسكيو، السؤال التالي و يجيب عنه بنفسه: هل يمكن أن نتعلم شيئا من ما قدمه ابن خلدون في القرن 14م؟ يجيب على ذلك "نعم بالنسبة لمفكر يكثف في أعماله فلسفة أرسطو و الثقافة العربية الإسلامية،

ومجمل التجربة السياسية التي عاشها في الأندلس و تونس والمغرب، وذلك بروح نقدية إبداعية، عبر ما قدمه من مفهوم جديد للتاريخ و من خلال التحليل الواقعي الذي طرح فيه نشوء و سقوط الحضارات"(محمد تقي، 2010، ص 4) و في مؤتمر ابن خلدون الدولي الذي نظم بجامعة ابن خلدون التركية في ماي 2019م أشار رئيس الجامعة" رجب شان ترك" إلى أن العلماء العثمانيين ناقشوا أفكار ابن خلدون في وقتها، و اعتبروا أرائه كالنظريات العلمية، ونحن نواجه يقول وضعا مماثلا اليوم، وهذا هو سبب وجودنا اليوم، ويقول"لا زال ابن خلدون مفيدا حتى اليوم، وما زلنا نستقي منه حلولا لمشكلاتنا التي تطرأ علينا من حين لأخر." وقد كان الهدف من المؤتمر هو استخدام منهج مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون لفهم الواقع الحالي و دراسة الحضارة.

2.5 -التوظيف الإيديولوجي للفكر الخلدوني: و في مقابل التوظيف العلمي للفكر الخلدوني و الإقرار بمكانته العلمية، نجد بعض المفكرين الغربيين أغراهم الفكر الخلدوني، لكنهم وظفوه توظيفا إيديولوجيا يخدم نزعتهم العنصرية والاستعمارية، فبدا لهم و كأنه يقدم تعليلا مقنعا على تخلف المغرب و تعثره الدائم في أحضان اللا تاريخ، بمعنى التحليل الخلدوني للطبيعة قبائل البدو والعصبية و الصراعات بين القبائل، ينفي أن يكون للمغاربة إرادة جماعية، و وعي مشترك يهيئهم إلى بناء دولة و إقامة حضارة، و قد ندد "مصطفى الأشرف" ((1917-2007): كاتب و مؤرخ و عالم اجتماع جزائري) بالتأويلات المغرضة لهؤلاء المفكرين الاستعماريين قائلا" حاول الباحثون ذو النزعة الاستعمارية عبثا تشويه الإرث الخلدوني عبر قراءة سريعة ومتسرعة لكتاب المقدمة، فبدا لهم تاريخ المغرب و كأنه تاريخ قبائل عربية تعيش على السلب و النهب، وقبائل بربرية غارقة في النزاعات والحروب(....) ظواهر تاريخية أبوا على شرحها و تكرارها في سياق إيديولوجيا استعمارية تقوم على الهيمنة و الاحتقار" و كان غرضهم هو حمل

القارئ على الاقتناع بفكرة التفوق الأوروبي. و من هؤلاء "ماسكوري" و "غوتييه" و" برتراند مرورا" و "بجان مير".

و قد تأثر بعض المفكرين العرب بهذه الايدويولوجيا الغربية القائمة على العنصرية و ساروا على هذا النحو أمثال "محي الدين جندر"(باحث في التاريخ جزائري) الذي ينتقد "ابن خلدون" و يعاتبه لأنه أقر بالثنائيات "البربر في مواجهة العرب، الحضر في مواجهة البدو، صنهاجة في مواجهة زناته، و لم يعمل على تكريس فكرة وحدة الشعب و فكرة الوطن عبر التاريخ، و لا وعي غير الوعي الديني." و المؤرخ الجزائري "مبارك الميلي" اعتبره مؤرخا في خدمة الدول البربرية القائمة المرينية و الزيانية على الخصوص، لأنه هاجم الهلاليين ونعتهم بالفساد والخراب. (غالم، 2014، ص65،66)

6-الخاتمة: ختاما لما سبق، نستنتج أن ابن خلدون يرجع له الفضل في وضع الأسس الأولى لعلم الاجتماع، و لعلم التاريخ سواء من حيث الموضوع أو المنهج، و تظهر عبقريته في كونه يمثل قطيعة في التفكير، فلم يستطيع السابقون عليه من المفكرين و لا الذين جاؤوا من بعده الإتيان بما جاء به. و أن المفكرين سواء كانوا غربيين أو عرب مسلمين تعاملوا مع إنجازاته العلمية، بنظرة علمية ترفع من قيمته و مكانته العلمية أحيانا و أحيانا أخرى بنزعة ايديولوجية تخدم نزعتهم العنصرية و الاستعمارية التي تكرس الأنا المتبجح المتضخم الذي لا يعترف الا بنفسه و يقصي الأخر في تشييد العلوم و بناء الحضارة الإنسانية، و الذي يؤسفنا هو المفكرين العرب المسلمين الذين يتعاملون مع التراث العلمي لابن جلدتهم بنظرة لا تليق به و خاصة "طه حسين" في كتابه "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" حيث شكك حتى في نسبه، ناهيك عن النقد الجارح لإنجازاته و لغته و غيرها من النقاط التي انتقدها عميد الأدب العربي، فكان علينا أن نكتشف العلامة ابن خلدون قبلهم و نسوقه للأخرين بالطريقة التي ترفع من علمائنا و تجعل لنا مكانة في التاريخ.

قائمة المصادر و المراجع:

أولا- الكتب:

- ابن خلدون عبد الرحمن،1979، التعريف *بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا* ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان.

-ابن خلدون عبد الرحمن، 1981 ، *المقدمة، الجزء الأول من كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيان العرب و العجم والبربر*، دار الجيل، بيروت .

-العروي عبد الله ،1997، *ثقافتنا في ضوء التاريخ*، الطبعة الرابعة، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان.

- بيومي محمد أحمد ،2003، *تاريخ التفكير الاجتماعي*، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر.

-حسين طه، 1925، *فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل و نقد* الطبعة الأولى، مطبعة الاعتماد، مصر.

-صليبا جميل ، 1989، *تاريخ الفلسفة العربية*، الطبعة الأولى، الشركة العالمية للكتاب، مكتبة المدرسة، لبنان.

ثانيا-المجلات:

-عزوز عبد الناصر و فكرون السعيد، 2012 ، حقيقة العمران البشري عند ابن خلدون، *مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية*، جامعة المسيلة، العدد 2، ص 211-224.

- غالم محمد،2014، المؤرخون الجزائريون و المرجعية الخلدونية، *مجلة انسانيات*، جامعة وهران، العدد 65،66، ص 15-29

ثالثا-مواقع الأنترنيت:

محمد تقي حبيب،2010، مقال *التراث الفكري الخلدوني بعيون مفكري الغرب*، https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2010/03/28/193652.html